# ابن عبد ربه وكتابه العقد الفريد

د٠ أحمد أحمد منصور نفادى

واضح أن هذا البحث يحاول أن يدرس علما من أعلام الأدب العربى فى واحد من آثاره ، ومن ثم فهى محاولة تجمع بين الأدب وأثره المختار ٠

انها تقدم الأديب : بيئته ، وحياته ، وشخصيته ، وثقافته ، وآثاره ٠ فنتاجه المختار : بواعث تأليفه ، وأجزاءه وموضوعاته ، وقيمته ، وأسلوبه ٠ وهنا تؤكد ــ بوجه خاص ــ على رؤية نص بعينه على المستويين المضمونى والشكلى ٠

وهكذا تتعدد المنطلقات ، وتتنوع المرتكزات ، فيرحب العطاء وتعظم الفائدة ٠

**ابن عبد ربه :**

**بيئتـــه :**

أرسل موسى بن نصير والى بلاد البربر ٠ من قبل الوليد بن عبد الملك ٠ طارق بن زياد لفتح بلاد الأندلس ــ هكذا كانت تسمى أسبانيا الاسلامية ــ وفى سنة ٩٢هـ تمكن طارق من فتح تلك البلاد وقتل ملكها ٠٠٠ وخضعت بلاد الأندلس للعرب ، واتخذوا قرطبة عاصمة لهم ٠

ومن الناحية الجغرافية : فان هذه البلاد تمتاز بميزات متعددة ، فمناخها داخل فى نطاق مناخ البحر الأبيض المتوسط ٠ ممطر فى

الشتاء ، ويمتاز بالاعتدال فى جملته • وتربة الأندلس خصبة للغاية• ليس فيها تقار ولا صحراوات لتكون من وديان مستقلة كل واد يخترق نهرا يعرفبه ، وتصب بعض هذه الأنهار فى المحيط الأطلسى •

وتكتنف كثيرا من أجزائها جبال شماء ، وهضاب خضراء تجرى فيها المياه ، وذلك ما جعلها عنية بجمال الطبيعة وسحر مناظرها،وهو الأمر الذى كان له صداه فى تذوق الأندلسيين وسعة خيالهم •

ويهمنا من الدول العربية التى تعاقبت فى حكم بلاد الأندلس على مدى ثلاثة قرون : الدولة الأموية من ١٢٨ — ٢٤٨هـ ، وكان من أعظم ملوك هذه الدولة : عبد الرحمن الداخل وهو الذى عمر قرطبة،وبنى بها القصور والمسجد الجامع •

ومن أشهرهم : عبد الرحمن الناصر : أول من تلقب منهم بأمير المؤمنين سنة ٣٠٠هـ • كان كثير الجهاد والغزو ، ويعهد عهد الناصر : العهد الذهبى للعرب فى بلاد الأندلس • نهضت فيه العلوم والمعارف ، وخطب وده ملوك القسطنطينية • فكان بين أمراء الأندلس أشبه بالرشيد بين خلفاء بنى العباس وكان ابنه الحكم الأول يشبه المأمون ، حيث نفقت فى عهده سوق العلم والأدب واتصل به أبو الفرج الأصفهانى وكان فى مكتبته أربعة وأربعون فهرسا(١) •

ومن المهم أن نولى اهتماما بقرطبة • اذ هى مسقط رأس ابن عبد ربه • على أن ننبه فى البداية أنه قد عاصر من حكام الدولة

---

(١) الآداب الاقليمية فى العصر العباسى الثانى للدكتور حامد حفنى سلسلة مؤلفات المنهج العلمى • مكتبة العرب بالفجالة ١٩٧٧م ص ١٢٨ — ١٦٢ ولمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب فى الأندلس لحسن مراد ص ٤ — ١١٥ ، دار الفرجانى بالقاهرة وطرابلس ولندن ١٩٨٤م •

الأموية فى الأندلس أربعة أمراء : ( محمد بن عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل ٢٣٨ ــ ٢٧٣هـ ) و ( المنذر بن محمد ٢٧٣ ــ ٢٧٥هـ ) و ( عبد الله بن محمد ٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ ) و( عبد الرحمن الناصر بن محمد ٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ )(٢) .

والواقع أن الحديث عن نواحى النهضة فى قرطبة من معمار ، وادارة ، وأبهة ، وغير ذلك يتضاءل عند الحديث عن قرطبة بوصفها موطن ثقافة قوية ، قدر لها أن تؤثر فى العالم المسيحى تأثيرا قويا .

ان قرطبة كانت تعتقد الذروة من ذلك المجد الفكرى الأندلسى . لقد وصلت جامعة قرطبة الى مرتبة الصدارة ، وتبوأت مكانتها قبل جامعتى القاهرة وبغداد ، وكان أساتذة من الشرق يدعون الى القاء الدروس ، فيها اضافة الى وجود مدارس كثيرة ، نظام للتعليم فيها « بالمجان » و « مصروفات » .

ووصل مستوى الثقافة الى حد أن المستشرق الهولندى «دوزى» استطاع أن يقرر أن كل شخص تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة فى الأندلس ، فى عصر كانت أوربا لا تملك فيه غير مبادىء فى المعرفة . هذا الى أن هذه المبادىء نفسها كانت محتكرة لأقلية من رجال الكنيسة . لقد كانت قرطبة خلية حقيقية تزخر بالعلماء والمشرعين والأطباء والفقهاء والنحاة والأدباء والشعراء .

ومع التسامح دينيا والتشدد عقائديا فانه كان ينظر الى العلم والفلسفة على أنها مشكلتان فى الدين ، بعد أنهما تألقا تألقا وضاء ، ففى مدرسة قرطبة كان هناك حماسة شديدة تتمثل فى المجريطى الذى

---

(٢) مقدمة محقق كتاب العقد الفريد .

كان تلاميذه يدرسون الرياضيات والفلك والطب والكيمياء ، ويدرسون في الوقت نفسه : الفلسفة •

أما الجراح الكبير : أبو القاسم الزهراوى • طبيب عبد الرحمن الثالث ، فقد شرح علم الجراحة واخترع طرائق جديدة فى الجراحة التى امتد نجاحها فيما وراء حدود أسبانيا الاسلامية بكثير ، وكان الناس من جميع العالم المسيحى يذهبون لاجراء عمليات جراحية فى قرطبة ، لتقدم الطب فى هذه البلاد(٣) •

وعن الكتابة والكتاب ، وبالذات كتابه لتدوين والتصنيف • فان هذه الكتابة قد طلع فجرها بعد أن وطد عبد الرحمن الدخل أركان ملكه ، وكثرت الرحلات الى المشرق للحج واقتباس العلم ، وبذلك نقل العلماء الى الأندلس أكثر ما صنف فى علوم اللسان والدين • وقد شجع الخلفاء والأمراء الكتاب وبذلوا الأموال فى جمع الكتب ومكافأة المصنفين •

وفى هذا المجال : فان علم الأدب قد أخذه الأندلسيون عن أدباء المشرق ، وكان لهم فيه كتب عدة من أمهات أصول الأدب ، كالأمالى والعقد الفريد ، وكتاب النوادر ، والكتاب : ابن بسام صاحب الذخيرة وابن فرج الجيانى صاحب الجدائق ، وابن أبى الخصال صاحب سراج الأدب(٤) •

---

(٣) انظر الحضارة العربية لجاك • س • ريسلر ترجمة غنيم عبدون ص ١٤٧ ـ ١٥٩ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ( بدون ) •

(٤) راجع تاريخ العرب في الأندلس ـ مرجع سابق ـ ص ١٥٤ عن مذكرة الأدب العربى بالأندلس للأستاذ السكندرى •

**حيـــاته :**

ابن عبد ربه ( ٢٤٦ — ٢٢٨هـ/٨٦٠ — ٩٤٠م ) أحمد بن محمد ابن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم ، أبو عمر : الأديب الامام، صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة ، كان جده الأعلى ( سالم ) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

ولابن عبد ربه أشعار فى الحب نظمها فى شبابه ، ثم أقلع فى آخر عمره عن صبوته ، وأخلص لله فى توبته ، فاعتبر أشعاره التى قالها فى الغزل واللهو ، وعمل على أعاريضها وقوافيها فى الزهد ، وسماها : « المحصات »(٥٠) .

**شخصيته :**

لم يذكر لنا المؤرخون شيئا عن سيرة ابن عبد ربه ، تدل على خلقه وصفته الا ما قدمنا من حديث لهوه وصبوته فى شبابه ، ثم توبتـــه وزهده من بعد ، ويمكننا أن نستنبط من دراسة أدبه ، أنه كان غيورا، ولوعا بالمنافسة ، معتدا بنفسه ، ميالا الى المزاح والفكاهة ، جريئا على الندماء ، يبدو ذلك من شعره ، ومن نقداته وتعقيبه على كثير مما يروى من أخبار العلماء ، وفى العقد كثير من ذلك .

**أما صفته الجسدية** ، فلا نجد ما يقر بها الى خيالنا الا قصـــة أوردها المقرى عن حديث كان بين ابن عبد ربه وأبى محمـــد يحيى المتلفاظ الشاعر ، يستفاد منها أن ابن عبد ربه كان دميما ، آدر ، قريب الخطو ، بياعد ما بين رجليه ، هزأة(٦) .

---

(٥) الأعلام للزركلى جـ ١ ( أح ) ودائرة المعارف الاسلامية مج ١ ومعجم الأدباء لياقوت ، الطبعة الأخيرة الحلبى جـ ٤ ص ٢١١ فما بعدها .

(٦) مقدمة المحقق لكتاب العقـد الفريد جـ ١ ص ( س،ع ) وانظر =

ثقـــافته :

يذكر أحدهم أنه كان يقال : لأبى عمر بالعلم جـلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانته وصيانته ، واتفقت له أيام وولايات للعلـم فيها اتفاق « رواج » فتسود بعد الخمول ، وأثرى بعد فقر ، وأشير بالتفضيل اليه ، الا انه غلب عليه الشعر(٧) .

ويتناول بعضهم هذه المسألة بتفصيل ، فيقول(٨) : كان ابن عبد ربه فقيها ويذكرون من شيوخه ، بقى بن مخلد ، والخشنى،وابن وضاح. ولعل درسه الفقه ، وسيرته كفقيه يفسران لنا ، ما يروى من أنه كانت له ديانة وصيانة .

ولقد درس ابن عبد ربه ــ فيما يظهر من عقده ومن الأخبار عنه ــ المعروفة فى ذلك العصر من نحو وعروض وشريعة وتاريخ أدب .

وكان ابن عبد ربه ، قبل كل شىء ــ أديبا وشاعرا ، وما كتبه فى العقد يكفى لاظهار هذا الأمر ، وكانت ثقافته الأدبية . شرقية كأدباء الأندلس ، فيما ألمعنا اليه آنفا ، من تماس أدبى كان على أشده بين الأندلسيين وأقطار العالم العربى .

---

=

ابن عبد ربه العقد الفريد ومنتخبات بقلم فؤاد البسـتانى ( جزءان ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ص ( ج،د ) .

(٧) انظر معجم الأدباء ــ مرجع سابق ــ جـ ٤ ص ٤٠ وما بعدها ، دار الآفاق الجديدة بيروت ط ٢ سنة ، ١٩٧٩م .

(٨) ابن عبد ربه وعقده ــ مرجع سابق ــ الصفحة عينها .

آثـــاره :

يتساءل أحدهم(٩) : هل لابن عبد ربه كتاب غير العقد ؟ ونستعرض للاجابة على هذا السؤال ، طرفا من أقوال الباحثين ، فمن قائل : ان لابن عبد ربه كتابا غير العقد هو « الباب فى معرفة العلم والآداب » ومن قائل انه ليس لابن عبد ربه سوى العقد .

## كتـــاب العقد الفريد

الباعث على تأليفه :

يترجح لدى الباحث ، أن المقصد من تأليف العقد الفـــريد كان مقصدا علميا أدبيا ، فان عبـــد ربه يقول فى مقدمة كتـــابه(١٠) : « فان أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ، ومع كل زمـــان وان كل متكلم منهم قـــد استفرغ غايته وبذل مجهـــوده فى اختصـــار بديع معانى المتقـــدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها الى اختصار ، والمتخير الى اختيار .

وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ... فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب ... « راجع النص المختار من العقد » .

---

(٩) نفسه ص ١٥٣ وانظر ابن عبد ربة لفؤاد البستانى ـ مرجع سابق ـ ص ( د ) وما بعدها .

● اعتمدنا فى دراستنا على نسخة معلوماتها المادية كما يلى :
العقـد الفريد تأليف الفقيـه أحمد بن محمـد بن عبد ربه الأندلسى ت ٣٢٨هـ . بتحقيق محمد سعيد العريان فى ( ٨ أجزاء ) المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ط ٢ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م .

**أجزاؤه وموضوعاته :**

لقد جاء كتاب العقد لابن عبد ربه فى خمسة وعشرين كتابا ، سماها بأسماء الجواهر ، وأطلق على الكتاب الثالث عشر : «الواسطة»، كما سمى كل كتابين متقابلين على جانبى الواسطة باسم جوهره واحدة ، على أنه أضاف الى اسم كل كتاب بعد كتاب الواسطة لفظة « الثانية »

وأول جواهره : كتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ثم كتاب الفريدة فى الحروب ... « راجع النص المختار من العقد » .

**قيمته :**

ان العقد الفريد ، فيما جاء فى تعريف بعضهم له(١١) : مجموعة أدبية ضمنها ابن عبد ربه ما رآه حقيقيا بالتدوين من فروع الأدب . كالخطب والشعر والفصول النثرية ،وأقوال العلماء والحكماء والأدباء فى قواعد العمران ، وسبل الاجتماع ، وأضاف الى ذلك كثيرا من البحوث المختلفة فى علوم عصره ، المجاورة للأدب بالمعنى المحدود ، والتى كان من الواجب معرفتها على كل من طمع فى لقب « الأديب » كعلم العروض ، وعلم الألحان ، وعلم الأبدار والنقف التاريخية ، مع أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم وأيامهم وحواذ مع جيرانهم .

وكان من أهم مصادر ابن عبد ربه فى جمع هذا المؤلف ، ماتقدمه من الكتب الأدبية ، وخصوصا كتاب : « عيون الأخبار » لابن قتيبة ،

---

(١٠) انظر العقد الفريد ج ١ ص ١ ، ٣ .

(١١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد . درس ومنتخبات ـ مرجع سابق ـ ص ( هـ ) .

وبعض مرويات الأصمعى والشيبانى وغيرهما المتفرقة فى غير كتب الأدب .

على أن هناك من الباحثين(١٢) من يؤكد على جسامة القيمة التاريخية للعقد ، فيذكر أن فى بعض أبواب العقد فصولا تاريخية لا تجد مثلها فى كتب التاريخ فأخبار زياد والحجاج والطالبيين ، فيها حقائق يعز العثور عليها فى كتاب آخر وناهيك بأيام العرب،وأعاريض الشعر ، وما هنالك من أخبار الخوارج والأزارقة فضلا عن كثير من الأقوال المأثورة من عظماء الملوك نقلا عن كتب أصولها .

لكن أقوى ظاهرة تبدو فى العقد هى — بلاشك — مسحته الأدبية.

ان الصبغة الغالبة على أكثر كتب العقد ، هى الصبغة الأدبية،حتى كتبه التى تبحث فى التاريخ والاجتماع والموسيقى لا تخلو من فوائد أدبية كثيرة .

أجل ! فبالنسبة الى رواية الشعر وأخبار الشعراء . فهناك فى العقد ما لا يقل عن عشرة آلاف بيت من الشعر لأكثر من مائتى شاعر جاهلى وأموى وعباسى .. ناهيك بما ذكره لنفسه من شعرافى العقد أكبر مجموعة من شعره .

أما من حيث وصف المجالس الأدبية والخطب والرسائل ، فان كتاب : « واسطة » العقد يغص بعيون الخطب ، ويعد — بحق — من خير المصادر لمراجعة بعض خطب المتقدمين ، اضافة الى الرسائل المتبادلة بين ناس وناس خاصة ما بين على ومعاوية ، ان صحت هذه

---

(١٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ ٢ طبعة جديدة ص ٢٠٢ .

الرسائل فمن انشاء الرسائل الطويلة قد تقدم عصر « عبد الحميد » ومعاصره « سالم » ، ففيها ترسل وانسهاب •

وعن القصص والنوادر والحكايات فان ما يضمه العقد فى كتابيه عن المتنبئين والمرورين والبخلاء والطفيليين ، وعن الفكاهات والملح يعد من أقدم المجموعات العربية للقصص والنوادر •

وفى مجال النقد الأدبى : فان فى العقد فصولا فى النقد نقل بعضها عن الأدباء من مثل الشيبانى وغيره،يجدر بعلماء النقد الوقوف عليها — وأخبارا ونوادر عن الرواة الذين أخذ عنهم كثيرا من أخبار العرب وشعرائهم ، لا تخلو هذه الأخبار والنوادر من تعليقات ونقدات لصاحب العقد •

وعلاوة على ما تقدم فان فى العقد كتابا هو الجوهرة فى الأمثال فيه مجموعة كبيرة لأمثال العرب قدرتبت وصنفت وبوبت حسب أقسامها الرئيسية وكتابا خاصا عن أعاريض الشعر وعلل القوافى ، يتضمن هذا الكتاب أرجوزة من نظم ابن عبد ربه لا بأس بها من حيث نظم قواعد العروض والمامه بها ••• »(١٣) •

---

(١٣) أما الأرجوزة من حيث النسيج الملحمى والقصصى ، فان بعضهم يعلق عليها قائلا : « بينا نؤمل خيرا بظهو رأول شعر قصصى ،ونطمع بمفاخرة الغير بهذه الملحمة ترى أملنا ميتا وطمعنا خائبا ، ازاء خلو هذه المنظومة من تصاوير الخيال الفسيح ومولدات الشعور القوى ، واذا بين أيدينا تاريخا منظوما لا ملحمة شعرية » •

انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد •• — مرجع سابق — ص (ى) وطالع الارجوزة فى العقد جـ ٥ ص ٢٢٥ — ٢٤٦ • وتاريخ الأدب العربى لعمر فروخ جـ ٤ ص ١٩٨ ، ٢١١ ، دار العلم للملايين بيروت ط أولى ١٩٨٠م والتوسع انظر ابن عبد ربه وعقده لجبور ص ١٢٠ — ١٢٥ •

● انظر فى تعليقاته على سبيل المثال ، جـ٢ ص ٢٦٢ ، جـ٥ ص٣ •

**أسـلوبه :**

طبعى أن يتمثل نثر ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، وهو ـ فيما عرفنا ـ كتاب مختارات نقلت بأصولها ـ فى مقدمة الكتاب ، وفى فرش كل كتاب ، وفى الجمل والفقرات الصغيرة التى نثرها فى العقد عند تعليقه على خبر أو تعرضه لراو .

وعلى الرغم من هذا الكم القليل من النثر الخاص بابن عبد ربه فى عقده ، وهو النثر الذى دبجته براعته ، فان أحد الباحثين قد استطاع أن يعدد طرفا من مزايا ذلك النثر ، لا بل يوازن بينه وبين أعلام كبار فى هذا الفن من أمثال : الجاحظ ، وابن قتيبة،وأبى الفرج الأصبهانى يقول(١٤) :

ان انشاء ابن عبد ربه يمتاز بالوضوح اذا قورن بانشاء الأصفهانى فى أغانيه وبالرقة من حيث اللفظ ، والترتيب من حيث المعنى ، اذا قوبل بنثر الجاحظ . ولعله أشبه باسلوب ابن قتيبة ولغته . ولم يوفق كل من ابن قتيبة وابن عبد ربه توفيق الجاحظ فى استعمال الجمل المقتضبة الوجيزة ، المتوازنة بعضها مع بعض والتى لم يلتفت فيها كثيرا الى السجع ، وان امتاز ابن عبد ربه على ابن قتيبة ، الى حد ما ، فى رقة العبارة وسلاستها ، وقصر العبارات ، واتزانها بعضها مع بعض .

ولقد كان ابن عبد ربه يرغب فى اللفظ السهل ، ويبعد عن التكلف ويميل الى الايجاز ، صحيح أنه كان يرى للاطناب موضعا،ولكنه كان يفضل الايجاز ، فى الجملة ، عليه ( انظر مثلا ـ فرش كتاب المسجدة فى كلام العرب جـ ٤ ص ٢ ) .

النص المختار للدراسة فى هذا البحث : مقدمة العقد .

---

(١٤) مقدمة ابن عبد ربه لكتابه العقد الفريد جـ ١ ص ١ ـ ٤ .

## بسم الله الرحمن الرحيم

## رب يسر وأعن

قال أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي :

الحمد لله الأول بلا ابتدا ، الآخر بلا انتها ، المنفرد بقدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهات ، ولا تنعته الصفات ولا تدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادىء بالاحسان العائد بالامتنان ، الدال على بقائه بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه ، المغتفر اساءة المذنب بعفوه ، وجهل المسيء بحلمه الذى جعل معرفته اضطرارا وعبادته اختيارا ، وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته ، وصامت متخشع لربوبيته ، لا يخرج شيء عن قدرته ، ولا يعزب عن رؤيته ، الذى قرن بالفضل رحمته ، وبالعدل عذابه ، والناس مدينون بين فضله وعذابه ، آذنون بالزوال ، آخذون فى الانتقال من دار بلاء الى دار جزاء .

أحمده على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، فانه رضى الحمد شكرا لجزيل نعماته ، وجعله مفتاح رحمته ، وكفاه نعمته وآخر دعوى أهل جنته بقوله عز وجل : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

وصلى الله على نبيه الكريم الشافع المقرب ، الذى بعث آخرا ، واصطفى أولا ، وجعلنا من أهل طاعته وعتقاء شفاعته . وبعد :

فان أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل إنسان ، ومع كل زمان وان كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها

الى اختصار والمتخير الى اختيار ، ثم انى رأيت آخر كل طبقة وواضعى كل حكمة ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظا وأسهل بنية وأحكم مذهبا ، وأوضح طريقة :

من الأول ، لأنه ناقض متعقب والأول بادىء متقدم • فلينظر الناظر الى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين انصاف ، ثم يجعل عقله حكما عادلا قاطعا ، فعند ذاك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت ، زكية التربة يانعة الثمرة • فمن أخذ بنصيبه منها كان على ارث من النبوة ومنهاج من الحكمة لا يستوحسن صاحبه ولا يضل من تمسك به •

وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب وان ما لى فيه هو تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء • واختيار الكلام أصعب من تأليفه وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله •

وقال الشاعر :

قد عرفناك اختيارك اذ كان ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : عقول الناس مدونة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم ، فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعانى وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته بابا على حدته ، ليستدل الطالب للخير على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب • وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار الى أشرفها جوهرا ، وأظهرها رونقا ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظا وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة آخذا بقول الله تبارك وتعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » •

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

وقال ابن سيبرين : العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه وفيما بين ذلك سقطات الرأى وزلل القول . ولكل عالم هفوة ، ولكل صارم قبوة .

وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلبا للاستخفاف والايجاز ، وهربا من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف اسناد الحديث من سنة متبعة وشريعة مفروضة ، فكيف لايحذفه من نادرة شاردة ومثل سائر وخبر مستظرف .

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافيا جامعا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوفقه فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور وسميته كتاب « العقد الفريد » لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة المسلك وحسن النظام .

وجزأته على خمسة وعشرين كتابا كل كتاب منها جزءان ، فتلك خمسون جزءا فى خمسة وعشرين كتابا ، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد .

فأولها كتاب اللؤلؤة فى السلطان . ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها ثم كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد . ثم كتاب

الجمانة فى الوفود • ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك • ثم كتاب الياقونة فى العلم والأدب ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال • ثم كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى • ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب • ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم كتاب المجنبة فى الأجوبة • ثم كتاب الواسطة فى الخطب • ثم كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة • ثم كتاب السجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم • ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه • ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى • ثم كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان واختلاف الناس فيه • ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ثم كتاب الجمانة الثانية فى المنبئتين والمرورين والبخلاء والطفيليين • ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان • ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب • ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والملح » •

**دراسة النص مضمونيا :**

واضح أن ابن عبد ربه يعالج فى مقدمته نقاطا عدة تتمثل فيما يلى :

ـ بيان المقصد من تأليف الكتاب ومدى الحاجة اليه • « فان أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب » •

ـ طريقة الكاتب فى تأليف الكتاب والدفاع عن طريقته والالماع الى اسهامه بلاده فى النهضة الأدبية « وقد ألفت هذا الكتاب » •

— اسم الكتاب وتقسيمه : « وسميته كتاب العقد ، لما فيه من مختلف جواهر الكلام ... » .

ومن خلال تلك النقاط التى اشتملت عليها مقدمة ابن عبد ربه لكتابه « العقد الفريد » تبرز لنا أهم خصائصها المضمونية فيما يلى :

١ — احكام خطة كتابة المقدمة : لقد وضع ابن عبد ربه خطة محكمة لكتابه مقدمة كتاب العقد الفريد . ومن ثم فانه لم يقع فى التشعب والتشتت الذى كان من سمات بعض الكتاب . ان نقطة فى تلك المقدمة تسلم الى نقطة وهكذا .

واللافت للنظر ، الاطناب فى « افتتاحية » المقدمة ، حيث عز الربوبية وذل العبودية ، ولعل السر فى ذلك ، محاولة التأكيد على الندم من جراء ما فرط فى جنب الله ، أيام شبابه ، يؤكد هذا تأليفه العقد — على ماذكروا(١٥) — فى أخريات حياته ، وقد بدأ يراجع نفسه ، وانتهى — فيما عرفنا — الى محو ما نظم فى أساليب الغزل والتشبيب ونظمه أبياتا فى الزهد على بحور غزله وقوافيه ، راجيا أن يمحص ما كان سلف من بوادر شبابه ، فسميت أشعار هذه بالممحصات ، فلا يبعد — اذن — أن تكون الافتتاحية ، تلك المطولة ، ممحصة نثرية تضاف الى الممحصات الشعرية .

٢ — دقة المعالم ومزاج الأديب : تبدو الدقة فى ذلك التصميم الرائع لمقدمة كتابه ، بما تنطوى عليه من عناصر متسلسلة وفى تصريحه الدال على تواضع معروف عن العلماء الأجلاء ، وذلك فى قوله : « وان ما لى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وغرش لحرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء .

---

(١٥) راجع مقدمة المحقق لكتاب العقد الفريد ، ص ( ع ) .

أما مزاج الأديب فيتمثل فى ميله الى الاختيار ، ودفاعه الحار عن هذا الميل ، ونحن نعلم أن المبدأ الأساسى فى الفن عموما هو الاختيار والانتخاب(٢) •

والمهم — فيما قرأت — اجتياز صعوبة الاختيار فى مجموعة تحديات الملكات لدى الفنان ، من اختيار ، وترتيب ، وغيرها • كذلك يتجلى مزاج الأديب ، فى تأنق صاحبه فى تقسيمه وتسمية أبوابه ، فسماها بأسماء الحجارة الكريمة تطبيقا لاسم الكتاب : «العقد الفريد» •

**دراسة النص شكليا :**

يتجلى لنا اسلوب ابن عبد ربه — عبر المقدمة — كما ينعته بعضهم قائلا : ان اسلوب الرجل كان موجزا ، واضحا ، قريب المعانى،ترتبط بعض جمله ببعضها الآخر ارتباطا منطقيا(٢٧) •

ويؤكد بعضهم هذه الخصائص عن طريق الموازنة بينه وبين أمثاله من الأدباء الظرفاء فى العصر العباسى ، الذين تركوا فى مؤلفاتهم روحانية نظيفة ، كانت تطرد الضجر الذى تبعثه فى النفوس،تصانيف اللغويين المملة ، ومجاميع العلماء الجافة ، يقول : ان عبد ربه يقصر عن ايجاز الأصفهانى ، لكنه يفوقه وضوحا ، وهو أبعد من أن يدرك فكاهة الجاحظ واسترسال انشائه ، ولكنه يسمو عليه بترتيب أفكاره، وحسن انتقالاته فيكون والحالة هذه ، أوفر من زميليه علما وتعقلا ، وهما أكثر منه تفننا وأدبا(١٨) •

---

(١٦) انظر فصل جمال الطبيعة وجمال الفن من كتاب : النقد الجمالى وأثره فى النقد العربى لروز غريب ص ٢٩ وما بعدها •

(١٧) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ جـ ٤ ص ٣١٣ •

(١٨) انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد درس ومنتخبات — مرجع سابق • ص ( ح،ظ،ى ) •

وعلى أية حال فان ميزات اسلوبه الكتابى — فيما دلت عليه المقدمة بوضوح تشمل : الايجاز فى الكلام ، وسلامته من الفضول ، وبراءته من التعقيد ، وبعده عن التكليف ، واتزان عباراته وحسن سبكها ، وعدم استعماله الغريب من المفردات ، فهو فى نثره ، كما هو فى شعره ، رقيق اللفظ ، جزله واضح التعبير سائغ الفهم(١٩) .

د. أحمد أحمد منصور نفادى
أستاذ مساعد بكلية اللغة

---

(١٩) التوسع انظر ابن عبد ربه وعقده — مرجع سابق ص ١٦١ .